

٥١- المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزى ادورد ولیم لیر

للاستاذ عدلى طاهر نور

الفصل الخامس عشر

استعمال التبغ والبن والحقنة والافقيوم الخ

إن تحريم الخمر بأنواعها في التشريع الإسلامى ، جعل
مسلمين بلجأون إلى وسائل أخرى تسبب لهم نشوة خفيفة
ضروباً مختلفة من الطرب الشديد

وأكثر هذه الوسائل انتشاراً في أغلب البلدان الإسلامية
يسميه العرب « كيقاً » وهو تدخين التبغ ، ولا يمكننى أن
أترجم هذا اللفظ بأكثر من « لذة لطيفة » . ويبدو
هذا التبغ أدخل إلى تركيا وجزيرة العرب وغيرهما من بلاد
نرق قبيل القرن السابع عشر من الميلاد^(١) أى بعد
لوات قليلة من انتظام تصديره كسلعة تجارية من أمريكا
، أوروبا الغربية . وكثيراً ما اشتد الجدل حول إباحة التدخين
سلم^(٢) غير أن ذلك جاز الآن . وقد غير التبغ من طباع المدن
به من الترك والعرب وجعلهم على الأخص أكثر كسلماً كانوا

(١) يقول الاسحاق أن عادة التدخين بدأت تنتشر في مصر بين عامي
١٠١٢ و ١٠١٢ هجرية (١٦٠١ - ١٦٠٣ ميلادية)

(٢) يروى الجبرتي أنه كثيراً ما كان يحدث في عهد محمد على باشا
الكسى الذى ولى مصر ١١٠٦ إلى ١١٠٨ هجرية أن يجبر كل من يحمل
كفاً على أكل حبر الشبك ومحتوياته اللينة . وقد يبدو هذا غير معقول
سكن الأسنان القوية تستطيع أن تهضم حبر الشبك (المؤلف)

« وفي أيامه (أيام محمد باشا الكسى) كتب فرمان بتحريم شرب
تاف في الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت ، ونزل الأغا والوالى
،وا بذلك وشددوا في الانكار والنكال بمن يفعل ذلك من عال أو دون ،
نار الأغا يشق البلد في التبديل كل يوم ثلاث مرات ، وكل من رأى
نعم آلة الدخان عاقبه وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بالنار .
بر تاريخ الجبرتي الفصل الثاني في ذكر حوادث مصر وولاتها . الفقرة
ص ١٠١٢ بمحمد باشا الكسى مصر
(المترجم)

عليه قبلاً ، فهم يضيعون في تدخين شبكهم وقتاً طويلاً . إلا أنه
كان ذا أثر آخر حسن ، فقد أغنى إلى قدر كبير عن استعمال
النبذ الذى يضر على الأقل بصحة سكان الأقاليم الحارة . وتقدم
قصص ألف ليلة وليلة التى كتبت قبل استعمال التبغ في الشرق
والتي تصور لنا بلارب عادات العرب وشمائلهم في ذلك الوقت
تصويراً صادقاً ، تقدم هذه القصص أدلة وافرة على أن المسلمين
وقتئذ أو في العصر السابق مباشرة كانوا يشربون النبيذ علانية .
ويمكن أن نقول دفاعاً عن الشبك - كما يستعمله العرب والترك -
أن أنواع التبغ الخفيفة التى يستعملونها عادة لها تأثير لطيف .
فهى تهدئ الجهاز العصبي وترهف الذهن بدلاً من أن تبأله .
ولا شك أن الشبك يتضمن كثيراً من لذات الشرقيين ويقدم
إلى الفلاح متعشاً رخيصاً زهيداً ويبيعه في الغالب عن المذات المفرة
وتعتبر القهوة ، نعمة مماثلاً للتبغ وتؤخذ معه ، وقد ساعدا
على جعل النبيذ أقل انتشاراً بين العرب . ويؤيد هذا الافتراض
لفظ « القهوة » وهى تسمية عربية قديمة للنبيذ . ويقال إن هذا
الشراب النعش اكتشفه في الجزء الأخير من القرن السابع
للعجوة أو الثالث عشر من الميلاد متعبد عابد الشيخ عمر دفعه
الاضطهاد إلى أحد جبال اليمن مع بعض أتباعه ، وحمله الجوع
إلى أن يشرب منقوع البن الذى بنبت هناك بالطبيعة . غير
أن استعمال البن لم ينتشر في اليمن إلا بعد هذا الزمن بجباين .
وقد استوردت مصر البن بين سنتي ٩٠٠ و ٩١٠ هجرية أى
في أواخر القرن الخامس عشر أو ابتداء القرن السادس عشر
من الميلاد ، أو قبل إدخال التبغ إلى الشرق بجبل تقريباً . وكان
يشربه حينئذ في جامع الأزهر فقراء اليمن ومكة والمدينة الذين
وجدوا فيه منشطاً لهم على العبادة والتسبيح ، وكانوا يكفون
على شربه بكثرة . وأدخل البن إلى الأستانة بعد ذلك بنصف قرن
تقريباً^(١) . وقد أثارت القهوة منازعات حادة بين المتعبدين
والتعلمين في جزيرة العرب ومصر والأستانة . فكان كثير
من العلماء يؤكد أن القهوة لها خصائص مسكرة فتحرم على

(١) أنظر دساي De Sacy في : مختارات من الأدب العربى
Chrestomathie Arabe الجزء الأول ص ٤١٢ - ٤٨٣ الطبعة الثانية

غروب...!

للاستاذ محمود حسن إسماعيل

مَالِي أَحْسَنُ كَأَنَّ عُمرِي فِي يَدِ الْأَخْزَلَانِ يُطَوِّى !
نَفْسِي تَنَاهَيْهَا الشَّقَاءَ وَلَمْ تَجِدْ فِي الْجَنَمِ مَأْوَى
قَلْبِي أَذَلَّتْهُ الْجِرَاحُ فَمَا يُطِيقُ بَيْنَ شَكْوَى
حُبِّي اسْتَحَالَ رَوَايَةَ لِلدَّمْعِ يَنْصَرِفُهَا فَتَرَوَى
وَصَبَا غَرَامِي صَارَ أَبْعَدَ مِنْ مَشِيبِ النَّعِيْبِ شَأْوَى
أَغْدُو، وَأُنْسِي ... وَالْأَسَى نَارُ أَذَابُهَا وَأَكْوَى
رَبَّاهُ أَمَا أَنَا؟ ... هَلْ وَجَدْتُ عَلَى زَمَانِ النَّاسِ سَهْوًا
سَرَيْتَنِي رُوحًا ... تَمَرَّدَ أَنْ يَرَى الْأَرْضَ مَتَوَى
وَأَنَا التَّرَابُ فَكَيْفَ صِرْتُ هَوَى، وَنَعْدِيَا، وَشَجْوَا
شُرَفَاتُ غَيْبِكَ لَا يُفِيحُنْ لِعَظِيمٍ مَنْ يَبْكِي دُؤَا
وَأَنَا إِلَيْكَ ذَرَفْتُ أَيَّامِي فَرَادَ دَبِي عُتْرَا
وَرَأَيْتُ سِحْرَكَ فِي الْوُجُودِ أَضَلَّ إِحْسَاسِي وَأَغْوَى
النَّهْرُ جَبَّارٌ عَصَاكَ فَلَاحَ مَحْمُومًا تَلَوَى
وَالْعِطْرُ زِنْدِيقٌ يُذِيعُ عَذَابَهُ ... وَيَقُولُ: سَلَوَى
وَالطَّبِيرُ مَجْزُوعُ الْفَنَاءِ وَيُلْبِسُ الْآهَاتِ صَفْوَا
وَالرَّيْحُ جِنٌّ آتَمٌ وَخَزَنَةُ زَلَّتْهُ فَدَوَى ...
... وَطَوَّى الْقَضَاءَ مَرْمَجْرًا مُتَصَرِّعًا يَسْتَلُّ عَفْوَا
وَالشَّمْسُ مَسْلُولٌ تَلْفَعُ بِالْقُيُومِ وَدَسَّ بَلَوَى ...
... قَلْبَتِ عَلَى شَفَقِ الْعَمِيبِ كَأَنَّهَا فِي النَّارِ تُشَوَى
وَاللَّيْلُ أَقْبَلَ بِمَدْلَا الْقِيَعَانِ أَسْرَارًا وَتَجَوَّى ...
وَأَنَا الْغَرِيبُ شَرِبْتُ أَحْزَانِي قَتِيلٌ: شَرِبْتُ نَهْوَا
وَبَكَيْتُ حَتَّى خَلَّتْ أَجْفَانِي مُنْذَبَتِي وَتَشَوَى
مَاذَا رَجَائِي فِي الْحَيَاةِ إِذَا انْتَهَى مَا كُنْتُ أَهْوَى
وَوَقَفْتُ أَحْفَرُ لِجِرَاحِ طَرِيقِهَا ... فَتَعُودُ شَدْوَا

محمود حسن إسماعيل

المسلمين^(١) بينما كان آخرون يقررون أن للقهوة فضائل، إحداهما مقاومة النوم فتكون عوناً قوياً للأتقياء على عبادتهم ليلاً. وكثيراً ما كان بيع البن حينئذ يحرم ويحلل حسب رأى الحاكم. أما الآن فيقول جميع المسلمين تقريباً بحل القهوة، ويفرطون في استعمالها، وحتى الوهابيون الذين هم أشد المسلمين صرامة في الحكم على التبغ والتمسك بأحكام القرآن والحديث وكانت القهوة تجهز قبلاً من حب البن وقشره معاً. ولا تزال نعد في جزيرة العرب منهما معاً أو من القشر فقط. وتختصر في البلاد الشرقية الأخرى من الحب وحده يقلى ويطحن أولاً فأولاً.

في القاهرة أكثر من ألف «قهوة»^(٢). والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود^(٣). ويقوم على طول الواجهة، ما عدا المدخل، مصطبة من الحجر أو الآجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثاً وعرضها كذلك تقريباً. وفي داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبيين أو ثلاثة. ويرتاد المقهى أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصراً ومساءً. وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغته. ويقدم «القهوجى» القهوة بخمس فضة للفتجان الواحد أو عشر فضة «للبكرج» الصغير الذى يسع ثلاثة فتاجين أو أربعة^(٤). ويحتفظ القهوجى أيضاً بعدد من آلات التدخين من رجيطة وشيشة وجوزة^(٥). وتستعمل هذه الأخيرة في تدخين التبناك والحشيش الذى يباع في بعض المقاهى. ويرتد الموسيقيون، والمحدثون على بعض المقاهى في الأعياد الدينية خاصة (يتبع)

هذه طاهر نور

(١) وقد نسب بعضهم إلى القهوة الإضرار بالعقل والبدن إلى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية إلى الجدال والفتن وحصول ما أدى إلى منع بيعها ونسب أوائها بل وإلى تمزيق باعها بالضرب وغيره. أنظر الباب الأول من كتاب: «عمدة الصغوة في حل الشهوة» للشيخ عبد القادر محمد الأنصارى الجزيرى (الترجم)

(٢) يطلق لفظ القهوة، وهو اسم الشراب على المكان الذى تباع فيه

(٣) أنظر الرسم الموجود في الفصل الحادى والعشرين

(٤) وكثيراً ما يباع في المقهى أيضاً في ليالى الأعياد خاصة شراب الرنجيل المحلى بالكرك

(٥) وصفت هذه الآلات في فصل سابق